قصة قصيرة

مرافئ للرحيل

سعد القرش

أسابق الزمن، فيسبقني، أدخل فيه، راحلاً عنه،
فيخرج مني، معرضاً عني، كأن الذي كان لم يكن، أتأبط
حزني، متفكراً في الذي لو كان كيف يكون؟، وما هو
كائن لو أنه لم يكن، أغمض العين، يرحل القلب
مع الراحلين، مهاجراً إلى مدائن بلا عودة،
وبحار بلا مرافئ، وأحبة بلا وطن....

- ١ -

... تتمنّى أن يتآكل الزّمن ويموت العمر منتهياً عند نقطة البداية لتحملك أعوام الطّفولة الأولى فتستقيم واقفاً تلهو وحدك ويمدّ العيال إليك حبال اللّعب يدعونك إلى الاشتراك معهم لكنّك تولّي بعيداً بعيداً هل تتّخذ منهم صاحباً؟ ألم تتعلّم من تجربة «البحيري» ألاّ تصاحب أحداً لأنّك لا تدري في أيّ ركن سوف يقذف به القدر ويتركك وحيداً وحيداً إلاّ من نفسك المتعبة ثمّ تعود من جديد تتمنّى أن تعيش الطّفولة ولا تعرف فيها أحداً إلاّ ما تشاء من الحيوان والطّيور والشّمس والقمر والجبال والنجوم والشّجر والزروع الّتي تواريك وأنت في طريقك إلى بحر النّيل أبيك وتبسط يديك مبسملاً فيشجيك همس العاصفير منادية كلّ طيور الأرض والحمام والّيام وعصافير الجنّة تتعلّق بيديك ورأسك وجلبابك تصير هيكلاً مغرّداً تريد عبور النّيل ولا تعرف العوم يناديك الأهل متوسّلين إليك بحقّ الأبوّة وأولادك يغرّدون يطربونك فلا تسمع نداء الأهل ومن منابت الشّعر يكسوك ريش طويل كثيف حتّى تمدّ الطيور أجنحتها تحجب الشّمس وتطير بك إلى البلاد البعيدة والأماكن الّتي جمعتك و«البحيري» ربّما تجده هناك فتعودان معاً ترفعان شارة النّصر أو تطوفان الدّنيا أو تحلّقان في السّماء تراقبان الملوك في قصورهم وحرس الشّرف وراقصة المعبد الّتي تزور الملوك كلّ ليلة أو يزورونها والكادحين في المصانع والمزارع من طلوع الشّمس حتّى طلوع القمر الّذي يختفي معظم الشّهر حياء من نفسه حتّى يكفّ المتعبون عن الأشغال الشّاقة ويستريحوا في دورهم ساعة من اللّيل والعيال في الحواري ينفضون عن أنفسهم تعب الجري والمسدّسات في أيديهم الصّغيرة يوم العيد تذكّرك بأيّام الجيش والحرب وأنت واقف بسلاحك تحرسه ويحرسك وتحرسان النّائمين والقادة اللاّهين وروّاد الملاهي اللّيليّة والخمّارات وشوارع العشّاق في المدينة البعيدة عن المعسكر الذي حدّثك عنه أخوك الأكبر وأنت صغير وقتها كنت تتمنّى أن تحارب وترجو أن يسحب الزمن بساط الأيّام من تحت رجليك الدّقيقتين لترى نفسك جاهزاً للقتال وتختلف مرّة ومرّة مع صديقك «البحيري» حول أيّ منكما يكون القائد ثمّ تتّفقان على أن يكون القائد الطّير المفارق في أيّ اتّجاه يسلكان هناك العدوّ المرابط خلف التباب والدّشم مختفياً وراء خيمة من ظلام والمدافع الثّقيلة مصوّبة إلى عنق من يفكّر في اقتحام المجهول ومن يحبّ الوطن الذي ترفع رايته تحيّيها في طابور الصّباح كلّ يوم في المدرسة بعد أن يصحو الطّير المحلّق ويحملكما والجنود إلى قمم الجبال والتباب بسرعة السّاعي إلى زواج من حوريّة الجنّة المنتظرة تحت ظلال البنادق والمدافع تحمل الشّهداء على يد الرّاحة مرتفعة بها إلى السّماء عالياً فعالياً فعالياً وتبحثون عن الجثّة المضرّجة بالدّماء فلا تجدون إلاّ السّراب الذي لا يبين ولا يبوح بسرّ العاشقات اللّواتي حملن الجنود على جناح السّعادة مصحوبين بتهنئات أهل الأرض والسّماء الدّنيا ذات المصابيح الّتي تحرق الشّياطين وتنير طريق العابرين حتّى يبلغوا المنى التي تمنّيت أن تبلغها لكن الرّصاصات

أخطأتك وأخطأته فتوسّلت إلى حوريّتك أن تصعد بك فانتظرت طويلاً طويلاً والظّلقات تثقب الهواء والرّؤوس والضّجيج وتطوّقك من كلّ جانب إلاّ أنّها لا تصيب البدن.

- ٢ -

في المستشفى العسكري، خلا لنا الجوّ، سألته إن كان أحد القادة أتعبه أو عاقبه، قال إنّه حقّاً مريض، والنّحس يطارده أينما يحلّ، ابتسم ابتسامة ميتة مشيراً إلى السّرير:

ـ العسكري الذي كان يرقد على هذا السّرير قبلي خرج ميّتاً منذ شهر.

رددت ضاحكاً كي أخفّف عنه:

ـ الموت!.. أهذا ما تفكّر فيه يا «بحيري»؟

أشاح بوجهه عنّي معلّقاً:

ـ أصبح يطاردني.. غير أنّي سعيد.

قلت لامبالياً:

ـ تتركني وحدي.. وتكون سعيداً.

ـ سعيد لحياتك.. وربّي شهيد!

أردت تغيير طعم الحديث، ورائحة الموت التي حاصرتنا، فسألته:

ـ وبسمة؟

ـ بسمة!، قابلتها مرّة، وأحللتها من الارتباط، ثمّ سمعت أنّها تزوّجت.... أمّا بعد.

هاأنذا أذوب في المدينة، وأنت الآن في مدينة أخرى، كلانا غريب، تركنا بلدنا فتركتنا، جذبني سحر المدينة، ورغم بعدك عنّي، فأنت دوحتي في هذا الهجير، في قاعات الدّرس، أثناء المحاضرة، نظرت من فوق سياج معرفتي بالبنات، كانت على الشّاطئ الآخر، ترنو إلى لاشيء، شغلني أمرها، عانقتها عيناي، حاصرتها من كلّ الجهات، أرادت الخروج من الدّائرة، انتبهت إليّ، أغمضتُ عينيّ لأتيح لها ما أتاحت لي، خفضت فنظرت، خفضتُ فنظرتْ، فكرّت ليالي، تابعتها أيّاماً، لم تكن تكلّم أحداً، ولم يكلّمها أحد، أسرتني عيون المدينة، وبنت المدينة، بقيّة من خجل بنات قريتنا، أعرف أنّك ستلومني، كذبت على نفسي كثيراً، حتى انهارت جدران المقاومة، في المحاضرة، أعلنت ـ عن بعد ـ الاستسلام، وهي أيضاً رفعت المنديل الأبيض، رفرفت الرّايات على أسنّة الأقلام... بسمة، هو اسمها، ليس وصفاً، أعلم رأيك، لكن عذراً، تخلّيت عن وعدي، عن وعدنا بعدم الزّواج إلاّ من بنات قريتنا، هل تتذكّر غيرتنا وتنافسنا على «سلوى»، أنت تضحك الآن على أحلام الصِّبا، لم تعد أحلاماً، منذ أيّام، رأيتها، «سلوى» التي كانت صغيرة، استدار وجهها بدراً، الخدّان تفّاحتان، تكوّرت الأيّام على صدرها، فاستوت عروساً كاملة.. ليت لي من بسمة ما لك من «سلوى»....

قال محاولاً انتزاع ضحكة من رحم المجهول:

ـ هنا ممرضة، تحمل عيون بسمة.

ـ تقصد ذات العيون الخضر.

رنّت ضحكته في الحجرة والعنبر كلّه:

ـ لم يعد يشغلك إلاّ العيون الخضر.. عيون سلوى، ذات الغمّازتين، لأنّك لم ترَ بسمة.

مشيت متمهّلاً، لعلّي أراها، جذبني باب نصف مفتوح، تسري منه همسات، دفعته داخلاً، فغمر المكان صمت حذر، فيما صوّبت إليّ أربعة سهام من العيون؛ كانتا تأكلان.. سألتني الكبرى بضيق:

ـ أفندم.. أيّ خدمة.

من تحمل عيون «بسمة» صاحبي، لا يمكن أن تحمل كلّ هذه القسوة، فلتكن الصّغرى، أهملت عصبيّتها الطّارئة، وأشرت إلى الصّغرى بلا تردّد:

ـ أريد الآنسة.

قامت، وكنت أتّجه إلى الباب، متعلّقاً بعيون بسمة، كلّما أتيح لي ذلك. مشينا بامتداد الطرقة، ثمّ دعوتها إلى الجلوس في مكان أكثر هدوءاً، بعيداً عن زميلتها، كتمت ضحكة في نفسها، ووافقت:

ـ أعتذر عن دخولي بلا استئذان.

ردّت في ثقة:

ـ كلّهم يفعلون ذلك.

ـ كلّهم... من؟

ـ العساكر.. ألست واحداً منهم؟

وخزني تعليقها، فأبديت اعتذاراً حقيقيّاً:

ـ لم أقصد.. ولست مثل الآخرين ـ لكنّني اضطررت إلى ذلك.

ـ أنت زميل «البحيري»؟

ـ وصديقه قبل الجيش.

هزّت رأسها في انكسار، ومصمصت شفتيها، فسألتها:

ـ أريد أن أعرف كلّ شيء... لابدّ..

قاطعتني، كأنّها تهرب من حصار الأسئلة:

ـ لا شيء... لا شيء.

ثمّ عدنا ندوس الصّمت، في طريقنا إلى حجرتها، كنت أمشي أمامها متمهّلاً، توقّفت أمام الباب، سددت فراغه بجسمي الضّئيل، واستدرت.. استحلفتها بالله، صمتنا، ثمّ إنّ حبّتين من اللؤلؤ داعبتا عيون «بسمة»، فيها قرأت ما استطعت من سطور عينيها، ولم أسأل عن الباقي. ثمّ قالت كالمعتذرة:

ـ صاحبك مصاب بمرض مزمن.. كلّ وقت تجده في حال، مرّة يناقشك بهدوء، وأخرى لا يطيق من أمامه، أو يضحك، وقد يسبّ ويلعن.

أومأت برأسي أن أكملي:

ـ وهكذا، كما ترى، مهنتنا أن يرانا النّاس في المصائب، ويسمعوا منّا كلّ ما هو غير سار.

لم أعد أطيق هدوءها القاتل، فصرخت:

ـ تكلّمي بسرعة وصراحة.

لبس وجهها قناعاً من الارتباك، خافت ثورتي فقالت:

ـ يؤسفني أن تسمع منّي هذا الكلام، أرجو أن يكون سرّاً بيننا، صاحبك، يجب ألاّ تفارقه، هذه الأيّام، صاحبك...

اشتعلت النّار في الكبد والقلب والأطراف، أمسكت بكوب زجاجي، وقذفته دون وعي.. يا أولاد الكلب.. يا أولاد الجزّارين. رفعت يدي وصفعتها، وجريت إلى حجرته، تدفعني وساوس الشياطين، قابلني النّاس في الطرقة، أوقفوني، وسألت أسئلتهم، وهي لا تجيب...

فتح الباب، ثمّ أخذني من يدي:

ـ سمعت بعض حديثكما.

ازداد شعوري بالاختناق، كأنّني أخطأت في حقّه:

ـ أيّ حديث تقصد؟

رنا إلى عيني، هو الذي يقرأني دون خطأ، ولا أكون معه إلاّ صادقاً.

ـ هل أخبرتك أنّني..

مددت يديّ أكتم الكلمة، أخنقها في جدران فمه:

ـ لا.. لا تقلها يا بحيري.

فتحت صدري، وفتح جناحيه. احتضنته واحتضنني. بكيت وبكى. حلّقنا بعيداً بعيداً. عند مفارق الطّرق. فقدنا الأجنحة. سقطنا أعلى الجبل. ولا أزال أحتضنه. ثمّ أحسست بالبرودة، والجناحان إلى جواره في سكون. تدحرجنا على رؤوس الصّخور، وعظام الأجداد، وحبال الدم تلفّني من كلّ مكان. حتّى كان القرار، عند السّفح، في بئر ماء بارد، ساعتها أفقت، والممرضة تبكي، وبيدها كوب به بعض ماء، وهي تصبّ فوق رأسي ووجهي، و«البحيري» بين ذراعي؛ وديع، أليف كعادته، لكنّه كان يرنو إليّ في صمت مميت...

القاهرة